المدارس الناهضة وقيمتها

تجربة حاسمة فى ولاية نيويورك

للأستاذ سلامه موسى

منذ نحو أربعين سنة كان جون ديوى أستاذا فى إحدى الجامعات الأمريكية الكبرى. وألقى محاضراته الأولى عن التعليم فتحدى الأساليب التقليدية ودعا إلى اتخاذ خطط جديدة لكى يكون التعليم أجدى على التلاميذ وأنفع وليهنأ التلاميذ كذلك بسنى الدراسة . وكان من عباراته التى جرت مجرى الأمثال والحكم فى البيئات التعليمية قوله : "المدرسة جنين المجتمع . التعلم بالعمل . يجب ألا يضحى بالحاضر من أجل المستقبل . يجب أن يعيش الصبيان ويتعلموا عن طريق عيشتهم فى المدرسة . التفاعل بين المدرسة والمجتمع".

وكل عبارة من هذه العبارات تعين هدفا وترسم توجيها . وقد انقسم المعلمون فى انحاء العالم فريقين أحدهما يأخذ بتعاليم ديوى فيما يسمى "المدارس الناهضة" وهذا هو الأقل ، أما الفريق الغالب والكثرة الساحقة فلا تزال تتبع المدارس التقليدية وتؤمن بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان . ولا يكاد يخلو عدد من المجلات التعليمية من مقال أو مقالات فى فلسفة التربية يجد فيها القارئ أن الحرب لا تزال قائمة بين المجددين أتباع ديوى وبين التقليديين الذين يؤمنون بأن البرامج القديمة هى خير ما يمكن الوصول اليه لتعليم الصبيان أو الشبان .

ونحتاج هنا الى أن نبين الفرق بين المدرسة التقليدية التى حاربها ديوى ودعا الى إلغائها وبين المدرسة الناهضة التى قضى نحو أربعين سنة وهو يقول بأفضليتها ويحمل وزارات التعليم فى العالم على تأسيسها . وحسب القارئ أن يعرف عن مقام ديوى أن حكومات تركيا ودولة الاتحاد السوفياتى وحكومة الصين قد دعونه جميعهن لكى يدرس الأساليب التعليمية ويقترح الاصلاحات ويضع الجديد من الوسائل والغايات ، وقد انتفعت جميع هذه الحكومات بآرائه ، ثم هو فوق ذلك فيلسوف يمتاز بإخراجه للفلسفة من السحب العالية القديمة وإنزالها على الأرض لخدمة المجتمع ، وهو القائل بأن الفلسفة يجب ألا تعنى بماهية الحقائق وإنما عليها أن تبحث هذه الحقائق من حيث قيمتها الانسانية فقط .

ونحن فى مصر نعرف المدرسة التقليدية التى حاربها ديوى . بل ليس عندنا غيرها فى مصر الا المدرسة النموذجية الصغيرة التى يقوم بها معهد التربية . وفى المدرسة التقليدية يدخل

الصبي ويقعد ويتعلم وهو قعيد. ويمكن أن نسمي مدارسنا هذه السبب بالمدارس القاعدة لكي تتميز من المدارس الناهضة الحديثة التي يتعلم فيها الصبيان وهم نشطون عاملون متحركون. فالمدرس عندنا يعلم الصبيان القراءة والكتابة والحساب والجغرافيا والتاريخ واللغة. وهو الواقف الناشط. أما التلاميذ فهم قعود متفرجون أو مستمعون. ثم هذه الدروس ليس لها علاقة بالمجتمع الذي يعيشون فيه، وهي هذه العلاقة الحقيقية التي يفهمها الصبي. فقد يدخل الصبي الفصل فيجد درسا عن قسطريدس مرازيل أو أوقليدس ولم يسمع في بيته حديثا عنهما. وقد يعطى مسألة حسابية عن القطن أو الأقطان وهو لم يرتط ليرة أو المكيال. وقد يشرح له معلمه تاريخ الفراعنة فلا يعرف من هذا التاريخ سوى أنه مطلب استذكار الأسماء وهلم جرا. ثم يأتي آخر العام فيمتحن في ما وعته ذاكرته من الدروس الماضية. ولكن هذا الامتحان لا يتناول المزعات النفسية التي تكونت فيه ولا النشاط الاجتماعي ولا الاتزان العاطفي ولا شهوة الاطلاع ولا القدرة على التعود لي ولا تقدره على شغل الفراغ. فمدرسنا في مصر وجميع المدارس التقليدية في العالم تعلم التلميذ وكأنه منفصل من المجتمع. ثم هي لا تجعله يعيش في المدرسة أي لا تجعله يتعلم أن يعيش. وهو هذا السبب غير سعيد بتلمذته غير هانئ بحصة الدرس. وذلك ما إن يدق الجرس في نهاية الحصة حتى يهرع الصبيان صائحين زائطين كأنهم قد أفرج عنهم من السجن فيخرجون في فناء المدرسة يجرون ويثبون فرحين بهذه الحرية بعد قيود الدرس.

ثم هم بعد أن يتركوا المدرسة يكرهون دروسهم فلا تكاد تعد تلميذا في شهر الإجازة الثلاثة أو الأربعة يحول فيه كتاب من هذه الكتب المدرسية التي تألم منها وعوقب عليها في الأشهر التسعة السابقة. وهو حين يحصل على شهادة انهائية من المدرسة التي هو فيها يكف عن الدراسة ولا يستزيد من التقوه. فكأن الامتحان النهائي كان بداية الجهل المقصود المدبر.

أما المدارس الناهضة التي دعا إليها ديوي والتي أخذت بها حكومات كثيرة في أنحاء العالم المتمدن فلا تزال إلى الآن قلة ولكنها القلة الميمونة التي يتطلع إليها آلاف المعلمين والاجتماعيين لكي تعم وتنتشر في جميع الأقطار. فالتلميذ يدخل في هذه المدرسة فلا يجد جدولا لحصص الحساب أو اللغة أو الجغرافيا. وإنما هو يجد معلمته شابة أنيقة أنيسة قد تقعد مع تلاميذها أو تلميذاتها ثم تسألهم ماذا نفعل اليوم؟ ويتناقش الصغار مع معلمتهم عن برنامج اليوم وعما تم في اليوم السابق وما لم يتم من الأعمال، لأن جميع الدروس في المدارس الناهضة أعمال. فيمر أعضاء هذا الفصل من تلاميذ ومعلمة على قدم المساواة بأعمال اليوم السابق في المناقشة والتعليق والاعتراض فيقال إن هذا الصبي قد أحسن وذاك قد أخطأ. وأن العمل الفلاني لم يتم وأنه يحتاج إلى استئنافه هذا اليوم ونحو ذلك. ولنذكر أن جميع

التلاميذ يعملون هنا متعاونين وليسوا متبارين . لأن المجتمع المنشود من المدرسة الناهضة هو مجتمع التعاون الذى يجب أن يقوم على أن يخدم الفرد المجتمع وألا تكون غايته أن يكون أفضل من غيره وأثرى وأحظى . والمعلمة عالمة من اختبارات تسير مع الصبيان أو تسايرهم ولكنها ترشد وتوجه وتنصح من حيث لا يحسون تفوقها وسيادتها . فإذا انتهت مراجعة الأعمال عن اليوم السابق شرعوا جميعا فى عمل هذا اليوم الذى قد يكون درس التاريخ الذى يحتاج الى زيارات متكررة لأحد المتاحف ، أو درس الجغرافيا التى لا تدرس من الكتاب فقط بل تدرس بالعمل و إليك مثالا :

أرادت إحدى المعلمات أن تدرس مع تلاميذها الذين تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والثانية عشرة نظام البريد . وهى لم تختر هذا الدرس اعتباطا ، وانما هى اختارته لمناسبة جعلت لتلاميذ يسألون عن كتابة الخطابات وارسالها فعمدت الى حضار الظروف والخطابات وكلفت أحد الصبيان شراء الطوابع وأخذ كل تلميذ يكتب خطابا . فكان كل خطاب موضوعا للإنشاء تقرؤه المعلمة وتصلح هى وسائر التلاميذ ما فيه من أخطاء لغوية أو إنشائية . ثم كان على التلميذ الذى كلف شراء الطوابع أن يقوم بحسابها ويجمع نقودها و يميز بين أثمانها مما هو لخارج البلاد أو لداخلها . ثم بعد ذلك استأذنت المعلمة وكيل مكتب البريد فى بلدتها فزارته مع التلاميذ وجعلتهم يشتركون فى وضع الأختام على الظروف وفى التحدث إلى جميع الموظفين وفى التمييز بين الأعمال المختلفة البريدية من إرسال الخطاب العادى إلى الخطاب المسجل إلى الصك البريدى إلى الحوالة العادية والحوالة المؤمنة . يتناول كل تلميذ جميع هذه الأشياء و يقرؤها و يتعرفها . ثم يتفضل وكيل المكتب بإخبارهم عن أعماله وتبعاته ومرتبه والبلاد التى يرسل إليها خطابات مكتبه . ثم تعود المعلمة إلى المدرسة وقد جمعت مئات الطوابع الأجنبية وعلى كل طابع منها رسم الملك أو رئيس الجمهورية أو أحد التماثيل فتشرح لهم وهم فى شهوة الاطلاع الذى أحدثته كتابة الخطابات وزيارة المكتب البريدى نظام البريد فى العالم وكيف نشأ . فنجد هنا الفرصة لدرس التاريخ والجغرافيا فإن كل تلميذ يخبر عن البلدة التى سيسافر اليها خطابه فترسم الخريطة بهذه البلدان وتقاس المسافات بالنسبة المئوية على الخريطة .

فهذا مثال أو هذا درس من دروس المدرسة الناهضة ، فإن هذه المدرسة لا تفصل بين مواد التدريس ، فليست حصة للحساب وأخرى للجغرافيا وأخرى للتاريخ . بل هى تجمع المواد التدريسية فى موضوع واحد يشغل التلاميذ فيتعلمون منه جميع هذه المواد كلما اضطروا إلى تعلمها . وهذا هو التعلم بالعمل .

وجميع الدروس تجرى على هذا المنوال . فهناك مثلا فصل يدرس بناء البيوت ، فتقوم المعلمة بإحضار مواد البناء التى يشتريها التلاميذ مادة بعد أخرى من حجر أو خشب أو طوب

أو زجاج أو معادن، ثم يبنى المنزل على قياس صغير ثم تأخذ المعلمة فصلها إلى أحد المقاولين وهو يسر بأن يحمل هؤلاء الصغار إلى المحجر الذى يقطع منه الحجر للبناء فيتحدثون إلى العمال ويجادلون المهندسين. ثم تعود المعلمة وقد وجدت فى هذا العمل دروسا مختلفة من الحساب والهندسة والكيمياء واللغة يتعلمها هؤلاء الصغار وهم يلعبون أو كأنهم يلعبون ويتعلمونها متعاونين غير متبارين.

هذا هو الفرق بين المدرس التقليدية والمدارس الناهضة: الأولى تنفصل من مجتمع والثانية تعيش فيه. الأولى تعلم وكان غايتها التعلم فقط والثانية تعلم وغايتها المجتمع. الأولى تجعل التلاميذ يتعاونون بأن يعيشوا والثانية تجعلهم يتعاونون وكأنهم لا يعيشون. وقد كان المدافعون عن المدارس التقليدية يقولون إن هذه المدارس الناهضة إنما تزيف التعليم وتغرس العصيان فى قلوب الصغار الذين يخرجون منها وهم لم يحسنوا شيئا ولم يتعودوا عادة المدرس. ولهذا السبب عمدت ولاية نيويورك إلى تجربة عظيمة لكى تعرف قيمة هذه المدارس الناهضة وهل صحيح ما يقال عنها من فوائد أو ما يحتج عليها به من مضار. فأحالت سبعين مدرسة من مدارسها الابتدائية وبها نحو ٧٥ ألف تلميذ إلى مدارس ناهضة وألغت البرامج القديمة وجعلت المعلمين المؤمنين بالنظريات الجديدة يتولون التعليم فيها. وكان ذلك سنة ١٩٣٥ أى أنه قد مضى عليها إلى الآن نحو ٦ سنوات فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة أن المدارس الناهضة أثبتت تفوقها على المدارس التقليدية. فقد امتحن تلاميذها مع تلاميذ المدارس التقليدية فوجد أنهم يساوونهم من حيث اتقان القراءة والكتابة والحساب، وهى المواد التى يوجه اليها الاهتمام فى جميع المدارس الابتدائية فى العالم. واذا كان هناك تخلف فهو مما لا يؤبه به إذ لم يزد على ٢٪ أى إذا كان التلميذ فى المدارس التقليدية قد حصل فى المتوسط على ٥٠ درجة فى القراءة والكتابة والحساب والجغرافيا والتاريخ واللغة فإنه قد حصل فى المدارس الناهضة على ٤٩، ولكن هناك الطفائف الجوهرية التى يمتاز فيها تلميذ المدارس الناهضة، فإن له شخصية ترى فى ثقته بنفسه وفى اتزانه الاجتماعى. إذ هو يعرف كيف يقعد فى أى مجتمع ويتحدث حديثا نيرا عن المسائل العامة فى لهجة بعيدة من الخجل. وهو يقتنى الكتب التى لم يعرفها فى مدرسته ويقرؤها. وهو فضولى الذهن يحب أن يعرف، كما أنه يجهل المباراة ويحب التعاون، فهو أنيس بعيد عن الخصومة. وهو اجتماعى يحب وطنه حبا بصيرا ويهتم بشئون العالم ويعرف كيف يتناول الجريدة اليومية ويضع عينه فيها على الأهم قبل المهم من الأخبار، ويسأل السؤال المفيد ويتفهم ويتعرف الحقائق الجديدة. وبديهى أن مثل هذا الصبى عند ما يبلغ سن الشباب لن يكون صفرا فى المجتمع بل سيكون عضوا نافعا فيه يطلب إصلاحه ولا يخالف أوضاعه مخالفة لإجرام أو انزياح.

وهذه التجربة التى قامت بها ولاية نيويورك هى مصباح جديد سوف يستضىء به جميع الاجتماعيين فى العالم ما

سلامه موسى